التماثيل والدُّمى في العبادة المسيحية

نظر للأب لويس شيخو اليسوعي

انَّ التمثال الجليل الذي نُصب حديثاً على مشارف لبنان لإكرام العذراء الطاهرة يحدو بنا الى وضع مقالة موجزة في توقير المسيحيين للمنحوتات التقويَّة التي تمثل الابرار او اسرار الدين وليس ذلك فقط في الكنائس الغربيَّة ولكن في بيع الشرق على اختلاف طقوسها ومنذ القرون الاولى للنصرانيَّة فانَّ في بيان الامر فائدةً تاريخيَّة لا تُنكر فضلًا عن انَّها تُفحم بالدَّلائل الراهنة بعض الذين يرون في مثل هذه العبادة غلوًّا وافراطًا بل كادوا يعدّونهُ كبدعة كما كتب احد المتجوّلين في غربي اوربَّا اذ دخل كنائسها فرأى فيها التماثيل الدينيَّة فكتب سامحهُ الله (اطلب المشرق ٤ : ٧٦٢ — ٧٦٥) :

وقد أدهشني ما رأيتُهُ في الكنائس التي زُرتها في فرنسة كثرة المنحوتات والتماثيل حتى خُيّل لي انَّ مساجد المسيحيين أصبحت اكثر قرباً لما كل دياناً واثون . وتذكرت خلوّ المعابد النصرانيَّة البيدة العهد في كلّ من سوريا ومصر من كل اثر للتماثيل والاتصاب فقلتُ لنفسي وما الذي يا تُرى حبّبها لاهالي المغرب هل ذلك لمحض الزينة او لاعتبار المتهم انَّ التماثيل مدعاة الى التقوى وتزيد الخشوع للمعبود فاذا كان السبب الاخير فقد اصاب الوثنيُّون اذًا فيما كانوا يفعلون ويكون النَّهي الالهي عن اتخاذ اقل منحوت في غير محلّهِ استنار الله (ورد هذا بحرفهِ في الصحفة ١٦ من كتاب « سياحة في غربي اوربَّا » بقلم نسيم خلاط سنة ١٩٠١)

ففي هذه الاسطر القليلة جمعَ الكاتب الحجج التي يستند اليها بعض خصوم الدين الكاثوليكيّ لنفي التماثيل ونجس شأنها . فنعقد الامل بانَّ القرَّاء يجدون في النبذة التالية ما يدحض هذه الشكاوى ويزكي العبادة المسيحية عن كل تهمة باطلة وقبل أن نتقفَّى آثار القرون السالفة وننقل شواهد المؤرخين لا نرى بُدًّا من توطئة نقدّم فيها للقارئ بعض الملحوظات التي تمهد الطريق لبيان حجتنا فنقول :

اوَّلًا انَّ الانسان من حيث هو مركَّب من نفس وجسد لا يستغني عن الاستعانة بالمحسوسات ليترقّى بها من عالم الكون الهيولي الى عالم الغيب الذي يفوق طور المخلوقات . وليست الغاية من وضع الفنون الجميلة للذَّة الحواسّ فقط بل هي من أقوى الوسائل للترفُّع فوق المادة وللتقرُّب الى اللاهوت فترى اصحاب كل الديانات قد تأنّقوا في

بناء المعابد ووضع الرسوم والنقوش وتطريب المسامع بالالحان الموسيقيّة والاصوات الشجيّة ممّا يعظّم المعبود في القلوب ويجرّ الافكار عن الصور الهيولّية الى استجلاء جمالي الحق سبحانهُ وتعالى وراء سجوف هذا العالم المحسوس

ثانياً ولا يخفى انّ بين الفنون الجميلة فنّين بديعين يجد فيهما المرّ صور المخلوقات بشبهٍ ادقّ وتاثيرٍ اعظم في النفوس اذ يكادان يُحيان في اعيننا عالم الغيب ويمثلان كل عواطف الغابرين بحيث يظنُّ الناظر الى آثارهما انّهُ يعيش في صحبة الاحباب الذين انفصلوا عنهُ . ألا وهما فنّا التصوير ونقش المنحوتات . وليس من ينكر صلاح هذين الفنّين (اللهمّ اذا رُوعيت اصولها واستُوفيت شروطها) لرسم التصاوير التقويّة وتمثيل الصور العقليّة على شكل محسوس ما لم ينهَ عنها ناهٍ لأسباب صوابيّة

ثالثاً ولسنا نجهل ان العقل البشريّ لضعفهِ معرّض في بعض الاحايين الى التورّط في العبادة فينسب الى المحسوسات قوّات خفيّة تخرجها من طورها التمثيليّ الى رتبة الحقيقة فيقيم تلك الصورة او ذلك المنحوت مقام المعبود نفسهِ وبدلاً من ان ينتقل من الصورة كما في سُلّم الى المصوَّر فيها ليؤدي لهُ الاكرام الواجب لشخصهِ تراهُ يجعل تلك الصورة المحسوسة او ذلك التمثال المنحوت كصنمٍ أُفرغت فيهِ قوّة الهيّة بل اندمج فيهِ ذلك الشخص البعيد الذي رُسمت صورتهُ . وعلى هذه الطريقة اتّخذ عَبَدة الاصنام صوراً محسوسة لأبطالهم وتماثيل لمشاهيرهم ثمّ بالغوا في تعظيمها وتجاوزوا طور الاكرام الى حدّ الشرك فعبدوها عبادتهم للإله الحقيقي الذي لم يرهُ قطّ بشر

رابعاً ومن المعلوم انّ عبادة الاصنام قبل تاريخ الميلاد اتّسعت نطاقاً حتى كادت تعمّ كل شعوب الارض من ارفعها في معارج التمدّن الى ادناها في المدنيّة ولم ينجُ من خطر الشرك الّا شعب بني اسرائيل وحدهُ وكانت قلّتهُ وتوسّطهُ بين امم المشركين يرضانهِ للتوثّن كما ترى ذلك في اسفار العهد القديم التاريخيّة حيث يؤدّب الله شعبهُ لعبادتهِ لأصنام الامم المجاورة ويضربهُ الضربات الفادحة لشطوطهِ عن خدمة ربّهِ الاعظم ولذلك كان اوّل ما تقدّم الربّ في وصاياهُ الى شعبهِ أن لا يعبد غيرهُ إلهاً «ولا يصنع لهُ منحوتاً ولا صورة شيء ممّا في السّماء من فوق ولا ممّا في الارض من اسفل ولا ممّا في المياه من تحت الارض لا يسجد لهنّ ولا يعبدهنّ » (الخروج ٢٠ : ٤ — ٥)

فنفى الله جلَّ جلالهُ ليس فقط كل التماثيل المنحوتة بل كل صورة ايضاً أيَّةً كانت تمثل كل المخلوقات

خامساً على انَّ امرهُ تعالى لم يتناول تلك التصاوير ليرذلها الَّا مع احتياطٍ واحتفاظ . فنفاها « خوفاً من السجود لها واتخاذها بمثابة المعبودات » لانهُ قال: لا تسجد لهنَّ ولا تعبدهنَّ . امَّا اذا كانت تلك التصاوير او المنحوتات لغير هذه الغاية فتسمق بافكارنا عن الارضيَّات وتذكرنا بالسماويَّات وتقرّبنا من الله ومن اوليائهِ القديسين فليت شعري أفي ذلك خطرٌ ان يعتبرها المرء كصنم او يعبدها كما يعبد خالقهُ ألا ترى انَّ الولد يُكرم صورة والدهِ ويقبلها كما لو كان ابوهُ حاضراً امامهُ وهو يعلم حقَّ العلم انَّ اكرامهُ ليس هو للصورة الهيولية بل يرجع لشخص ابيهِ الكريم فأيّ نصٍّ من الكتاب المقدس يمكن المناظر ان يستشهد بهِ لنفي مثل هذا الاكرام . ولا حرج في كون الصورة او الدُّمية تمثل احد اولياء الله او الانبياء القديسين فان الاكرام يوافق رتبة المصوَّر دون ان يبلغ مقام الحق سبحانهُ وتعالى علوّاً عظيماً

سادساً والدليل على ان موسى كليم الله لم ينفِ الصور والمنحوتات الَّا حسماً للشرك ورعايةً للعبادة الحقيقة بالخالق انَّهُ هو نفسهُ لمَّا مُني بنو اسرائيل بالحيَّات ومات كثيرٌ من نفث سمهنَّ اقام في البريَّة حيَّةً من نحاس كانت رمزاً الى صليب الربّ كما صرَّح يوحنَّا الحبيب في انجيلهِ (٣: ١٤) . وكذلك لمَّا ابتنى بامرهِ تعالى تابوت العهد تقدَّم الى صانعيهِ بان يتَّخذوا فوقهُ منحوتتين من الذهب الخالص وهما كروبان يبسطان فوقهُ اجنحتهما. فقل لي رعاك الله كيف استطاع موسى أنْ يصوّر هذه التماثيل ويجعلها في اقدس مكان من هيكل الربّ ان كان امرهُ تعالى يعمُّ كل التصاوير على اختلاف غاياتها

سابعاً وزد على ذلك انَّ الله عزَّ وجلَّ مع كونهِ روحاً مجرَّداً عن كل جسم قد تراءى غير مرَّة في العهدالعتيق للانبياء كاشعيا وحزقيال بزيّ محسوس تارةً كالملك مهاب جالس على عرش القضاء وتارةً على شكل شيخ جليل عريق في الأيام وكان الانبياء يخرُّون سُجَّداً امام تلك الرؤى التي كانت لشباهًا فقط فمن ترى يلوم الانبياء على سجودهم لتلك الاشباه والصور وليست غايتهم من فعلهم الَّا السجود للعزَّة الالهيَّة المتجلّية لهم متشحة بتلك الازياء المحسوسة . وان اراد بعض المصوّرين ان يرسم تلك الاشباه بالالوان ويُدوّنها امَّا على الانسجة واما على الخشب واما بنحتها في الرخام

أفيُقال انَّ ذلك الشبه صنمٌ وانَّ الاكرام لتلك الصورة عبادةٌ باطلة اذ المتعبد لها لا ينوي توجيه كرامته الَّا لذلك الذي ظهر على هذا الشبه لخلوقه . وكم بالاحرى يسوغ ذلك لمن يمثل صورة الاله المتجسد الذي لبس طبيعتنا وعاش بيننا بصفة ابن البشر. فان المكرم لتلك الصورة يعلم حق العلم ان اكرامهُ ليس لما تتركب منهُ الصورة من دهون او نقوش او الوان او موادَّ نسيجيَّة او خشبيَّة او حجريَّة بل يقصد بسجوده واكرامه شخص ابن الله تنفسه الذي امامهُ تجثو كل ركبة في السماء وعلى الارض وفي الجحيم . وقس عليه بقيَّة الصور والتماثيل

*

هذه بعض ملحوظات قدَّمناها على اثباتنا لكرامة الصور عند المسيحيين سواء كانت منقوشة فقط او كانت منقورة بالنحت او مسبوكةً في المعامل الصناعيَّة بالذهب او الفضة او الحديد اذ ليس من فرق جوهري بين تلك الاشكال والهيئات المختلفة . فهلمَّ بنا الآن نتقصَّى شواهد التاريخ المسيحيّ في اكرام التماثيل فنقول : لما انتشرت الدعوة النصرانيَّة في انحاء العالم وانارت بضيائها عقول الوثنيين لم يأنف اصحابها ايضاً أن يتَّخذوا في نشرها كل الوسائل الحسنة التي كان من شأنها أن تصرف أنظار المتحيِّرين عن مشاهد الوثنيَّة ومناسكها الباطلة وتعدل بهم الى التُّقى والصلاح . ومن ذلك اهتمام الكنيسة بان يتنكَّب ابناؤها عن التصاوير والدُّمى التي كان الوثنيُّون يوقرونها في هياكلهم وساحاتهم وشوارعهم وبيوتهم ويبرزونها على اشكال شتَّى ليسترقوا افكار الناس ويعظموها في اعينهم . فتلافياً لهذا الشرّ المتفاقم سحت الكنيسة منذ اوَّل النصرانيَّة بعرض الصور التقويَّة على المؤمنين ليكرموها بدلاً من تلك الصور السجية التي شاعت بين الوثنيين

ولنا على ذلك ادلَّة في بعض التقاليد الراقية الى عهد السيد المسيح وبيلاطس البنطي . فانها وان لم تكن قاطعةً راهنةً تنبئ مع ذلك بمعتقد المسيحيين الاوَّلين فمنها المنديل الذي كان يُكرَّم في كنيسة الرها وعليه صورة الربّ قيل انهُ تبارك وتعالى جعل ذلك المنديل على وجهه الالهي فرسم صورتهُ وارسلها الى الابجر صاحب الرها (١ . ومنها منديل فيرونيكة الذي يرقى التقليد الى زمن آلام المسيح اذ مسحت به احدى النساء

(١) الطب مختصر تاريخ الدول لابن العبري ص ٢٨٧

وجه الخلاص وهو صاعد الى الجلجلة ينوء تحت صليبه فارتسمت صورتهُ المباركة على منديلها . ومنها ما يُنسب الى القديس لوقا الانجيلي من التصاوير لاسيما صورة العذراء الطاهرة المعروفة به والمكرَّمة منذ اجيال عديدة في رومية العظمى

وبانتشار النصرانيَّة على يد تلاميذ السيد المسيح وارباب الدين المسيحيّ انتشر ايضاً اكرام الصور . وناهيك بما وجد منها في ديامس رومية حيث كان النصارى الاولون في القرون الثلاثة الاولى يقيمون فرائض دينهم . فانَّ التصاوير التقويَّة التي تزيّن جدرانها او وُجدت بين آثارها وعلى نواويس المقبورين فيها تبلغ المئين وتملأ مجلَّدات ضخمة . وكذا قل عمَّا اكتُشف من ذلك في دفائن مدن ايطالية وفرنسة وافريقية والاسكندريَّة وغيرها . وبين هذه التصاوير ما يدلُّ على براعة مصوّريها واتقانهم لأُصول الفن ولعلَّهم كانوا زاولوه قبل ان يدينوا بالنصرانيَّة فخصُّوا صنعتهم بخدمة الكنيسة بعد ان تفرَّغوا زمناً لتصوير خرافات الوثنيين

وما يَدلُّ على عموم اكرام الصور في كنائس الشرق قبل القرن الخامس انَّ الامم التي انفصلت عن الكنيسة الرومانيَّة في ذلك العهد كنساطرة الكلدان (اطلب مقالة حضرة الخوري بطرس عزيز في ذلك . المشرق ١٠ : ٨٤٤) ويعاقبة السريان والارمن والاقباط لم يزالوا يكرمون الصور كما ألفوا الامر قبل انفصالهم . ومن المقرَّر انهم لم يُحدثوا ذلك تبعاً لكنيسة رومية التي لم يخضعوا لاوامرها منذ ذلك الزمان

ولنا دليل اعظم منهُ في تصدّي الكنيسة جمعاء لمكايد الايقونوقلست المبتدعين الذين حاولوا نزع الصور وكسرها باغراء الامبراطرة لاون الثالث الايزوري (٧١٧—٧٤١) وقسطنطين الرابع الزبلي (٧٤١—٧٧٥) ولاون الرابع الخزري (٧٧٥—٧٨٠) فدافع كثيرون من القديسين عن تعليم الكنيسة نخص منهم بالذكر القديس يوحنا الدمشقيّ (١ وتلميذهُ ثاودورس ابو قرَّة وللاوَّل مباحث عديدة في اثبات الحقّ امَّا الثاني فلهُ مقالة مطوَّلة كتبها بالعربيَّة وهي من اجلّ آثار القرن الثامن طُبعت في بوتَّة سنة ١٨٩٧ . وقد مات كثيرون في ذلك الاضطهاد شهداء ايمانهم وبقي الامر على ذلك الى أن عُقد بمساعي الخير الاعظم والامبراطورة ايريني مجمع في نيقية فشجب الآباء اصحاب تلك البدعة وقرَّروا اكرام الصور فلم يَعُد الخالفون الى مناقضة هذه الحقيقة

١) وقد صرّح القديس بذكر التماثيل ايضاً في كتابهِ من الايمان المستقيم (ك ٤ ف ١٥)

في كل اقطار الشرق . امَّا الغرب فان تلك البدعة لم تجد لها مضدًا الى القرن السادس عشر حيث ظهر لوتاروس وذووهُ فجروا في محاربة الصور والقون مجرى الايقونوقلست. وترى كثيرين من البروتستنت في عهدنا عادوا الى اكرام التصاوير ونصبوها في هياكلهم دون أن يجدوا في توقيرها اثرًا البتَّة للشرك والوثنيَّة كما زعم بعض اجدادهم .

*

ومن الامور المستغربة انَّ البعض فرقوا بين الصور المنقوشة بالدهون على الالواح او الانسجة والتماثيل المجسَّمة فسمحوا باكرام تلك دون هذه وادَّعوا ان اكرام الدُّمى من البدع المستحدثة وانَّ الكنيسة لم تكرِّم في سالف الاجيال مثل هذه التصاوير المنقورة في الصخر او الناتئة الشكل بالحفر او النحت وانَّ الكنيسة الرومانيَّة ابتدعت هذا في القرن العاشر كما زعم جناب الكاتب نسيم خلاط في سياحته (ص ٣٣–٣٤) وقال هناك انهُ لم يجد في متاحف اوربَّا اثرًا للتماثيل الدينيَّة فاستنتج «ان البروز في وجوه الصور الملساء عن مساواة الجسم لم يظهر في الايقونات الَّا في آخر القرن العاشر »

فقبل الجواب على هذا الاعتراض يحسن بنا ان نقول انَّهُ لمقرَّر انَّ عدد التماثيل في قرون الكنيسة الاولى لم يكن وافرًا مستفيضًا لا لكون الكنيسة كانت تعتبر هذا الاكرام كمخالف لوصاياهُ تعالى او خوفًا منها ان يكون هذا التبجيل شبيهًا بعبادة الاصنام لا لعمري وانَّما سببهُ احتراز الكنيسة في قرونها الاولى من كل ما يمكنهُ ان يشكك الطالبين للتنصُّر فيظنُّون انَّ اكرامنا لتلك التماثيل يشبه اكرامهم الباطل سابقًا لتماثيل المتهم . وكان للكنيسة داعٍ آخر يحملها على الاقلال من تلك الدُّمى خوفها من أن تقع في ايدي المغتصبين فيعرِّضونها للهزء والسخريَّة . امَّا التصاوير الملونة المنقوشة على الجدران او الانسجة فكان إخفاؤها عن العيان من الامور السهلة فلم يأتها اهانة واحتقار

قلنا انَّ اصطناع التماثيل في اوائل النصرانيَّة كان قليلًا ولا ننكر مع ذلك وجودها كما بيَّنهُ في الاسطر التالية

(اولًا) اخبر اوسابيوس القيصري في تاريخهِ الكنسي (ك٧ف ١٨ . مجموع الاباء اليونان لمين مجلَّد ٢٠ ص ٦٧٩) ومثلهُ المؤرخ سوزمان (ك٥ف٢١ مجموع الاباء مجلَّد ٦٧ ص ١٢٧٩) وغيرهما بانَّ المرأة التي شفاها السيِّد المسيح من نزيف الدم (لوقا ٨ : ٤٣) لمَّا رجعت الى وطنها قيساريَّة اقامت تمثالًا للسيِّد المسيح جعلتهُ على باب دارها

وصوّرت نفسها امامهُ حين ابرأها من مرضها. قال اوسابيوس أنهُ شاهد ذلك الاثر. واخبر سوزومان بانَّ الوثنيين في ايام يليانوس الجاحد حطّموا ذلك التمثال لكنَّ النصارى جمعوا قطعهُ وحفظوها باكرام في كنيستهم (١

(ثانياً) في المتحف اللاتراني في رومية دمية صغيرة من الرخام الابيض تمثل صورة السيد المسيح على صفة الراعي الصالح فهو لابس ثياب الرعيان وعلى جنبيهِ نزاد الراعي وفوق منكبيهِ الخروف الضالّ يمسك بيديهِ قوائمهُ الاربعة . وهو تمثال غاية في البهاء والحسن يُعدُّ من اجمل المنحوتات واحكمها صنعاً وارباب العاديات يُرجّعون عهدهُ الى القسم الاوّل من القرن الثالث (٢ ومن سوء الطالع انَّ هذا التمثال مكسور الساقين (اطلب الشكل الاول)

(ثالثاً) وفي المتحف عينهِ تمثال آخر للراعي الصالح دونهُ صنعاً ودقّة لكنَّهُ تامٌّ سليم وصورتهُ تخالف صورة التمثال السابق وفي رجليهِ حذاء طويل يبلغ ركبتيهِ . وباحدى يديهِ يمسك عصاة الراعي والمرجح انهُ اقدم من التمثال السابق (٣

(رابعاً) ورد في تاريخ حياة قسطنطين الكبير لاوسابيوس القيصري (٤ انَّ قسطنطين لمَّا ابتنى القسطنطينيَّة زيَّن ساحتها الكبيرة بتماثيل بهيَّة في جملتها تمثال الراعي الصالح وتمثال دانيال النبيّ بين أسدين كما كان في بئر الاسود . وقد وصف الاثريّ الشهير دي روسّي تمثالين آخرين من الراعي الصالح وجدهما في متحف الاستانة الجليل اكتُشف الواحد في دار السلطنة والآخر في بروسة لكنهما من القرن السادس فقط وعلى رأي هذا النابغة انَّ تماثيل الراعي الصالح نُحتت اوّلاً في بلاد الشرق ومنها انتشرت في جهات الغرب . فيكون اذن السبق للشرق في اصطناع التماثيل الدينيَّة كما في امور اخرى كثيرة

(خامساً) ومن التماثيل الشهيرة التي شاع ذكرها وتُرى اليوم في المتحف اللاتراني

---

١) اطلب تاريخ الاثار النصرانية لدون لوكلار (Dom H. Leclercq : *Manuel d' Archéologie Chrétienne*. II, 248-250)

٢) في التاريخ عينهِ (*ibid*. II. 251-253)

٣) في التاريخ عينهِ (*ib*. II. 254)

٤) اطلب Eusebius : *De Vita Constantini*, L. III. c. 49

تمثال احد كتبة الكنيسة في اواسط القرن الثالث اعني به القديس هيبوليتوس لسقف مدينة پورتو . وهذا التمثال منحوت في الرخام الابيض والقديس جالس على سُدَّة المعلّمين وفي ظهر التمثال جدول تآليف القديس هيبوليتوس باليونانيَّة

(سادساً) ومن التماثيل الشهيرة التي تنبئ باكرام قدماء النصارى لمثل هذه الصور المجسَّمة تمثال هامة الرسل القديس بطرس الذي يرتقي الى القرن الخامس وتردان به كنيسة الواتكان الكبرى . فهذا الاثر من الشبه يمثل القديس بطرس جالساً يبارك بيمينه ويمسك في شماله المفاتيح الرمزيَّة . وقد رسمنا هذه الصورة في المشرق (٦ : ٥٧٨) في جملة آثار أخرى جليلة وُجدت في الدياميس وكلُّها تنوّه برئاسة ذلك الرسول على الكنيسة جمعاء . (اطلب هناك مقالة حضرة الاب لويس جلابرت) . والمظنون ان هذا الشخص من عمل الوثنيّين فلمَّا تغلب قسطنطين على الدين الوثني أعاد المسيحيون سبكهُ وخصُّوه باكرام كبير الرسل

(سابعاً) وقد وُجد في دياميس رومية سنة ١٧٠٢ تمثال آخر من البرنز صغير الحجم يمثل بطرس الرسول منتصباً كمعلّم وعلى منكبه الايسر صليب الربّ ينتهي طرفهُ الاعلى بالحرف الاوَّل من اسم السيّد المسيح . وقد حُفرت هذه الصورة على عدة آثار نصرانيَّة قديمة (١

(ثامناً) وقد جاء في اعمال القديس غريغوريوس النزيانزي الثاولوغس في رسالة كتبها سنة ٣٨٢ انهُ سعى بتشييد كنيسة وزيّنها بالصور والتماثيل (٢

(تاسعاً) في متحف العاديَّات المصون في الاستانة تمثال للعذراء مريم حاملة على ذراعيها الطفل يسوع . وهو موسوم هناك بالعدد ٥٩٠ (راجع وصف عاديَّات هذا المتحف للاثري س. رياخ)

(عاشراً) ومثلهُ تمثال آخر للبتول سابق للقرن السابع وجدهُ الرحَّالة دومون (A. Dumont) في مدينة ميريوفيت من اعمال ثراقية (٣

---

١) راجع دون لوكلار Dom Leclercq II. 259

٢) راجع نشرة الآثار النصرانية للعلامة دي روسّي (Bull. di arch. christ., 1887, p. 148)

٣) راجع مجموع البحثات العلمية القسم السادس المجلد ٢ ص ٧٨٧

(حادي عشر) وفي عاديات كنيسة خلكيس دمية اخرى تمثل العذراء مريم واقفة في هيئة المصلين

(ثاني عشر) وممّا كان يزين كنيسة أيا صوفيا من التصاوير تمثال عظيم للقديسة هيلانة والدة قسطنطين الملك (١ ولا نتعرّض هنا لذكر تماثيل أخرى كانت منصوبة في الساحات كتمثال قسطنطين الكبير في القسطنطينيّة وتمثال ثاودوسيوس في انطاكية لئلّا نخرج من طور الدين الى الطور المدنيّ وغايتنا أن نصف خصوصاً التماثيل الدينيّة

(ثالث عشر) ومن الاثار العزيزة الوجود تمثال من الرخام منقوش بالالوان الزاهية يمثل القديس بطرس على كرسيّ الرئاسة وفي يده المفاتيح وهو لابس رداء اخضر وعلى الرداء بُردة حمراء. وهذا التمثال يُرى اليوم في سراديب الواتكان تاريخهُ القرن الثالث للمسيح (٢ (انظر العدد الاوّل من الشكل الثاني)

(رابع عشر) وممّا يزيد رأينا في شيوع التماثيل ما يُخبر عن قسطنطين الزبليّ انّهُ لمّا اشهر الحرب على المدافعين عن الصور امر بان تُجمع كل التصاوير والتماثيل التي في عاصمة ملكهِ فاحرق الصور واذاب التماثيل ليتّخذ ذهبها وفضّتها لخزائنهِ. وفي ذلك دليل قاطع على انّ الروم في الاستانة كانوا يكرمون الصور على اختلاف اشكالها سواء كانت منقوشة او منحوتة

(خامس عشر) وممّا يضاف الى الادلّة السابقة عدد كثير من النواويس النصرانيّة القديمة التي تُرى اليوم في معظم متاحف اوربّة وعليها نقوش محفورة وتصاوير ناتئة تمثل اسرار الدين المسيحي واولياء الله والرسل والشهداء. ولولا انّ اولئك النصارى اعتبروا نقرها كشيء حلال يبعث في النفوس روح التُقى لما تساهلوا بالامر. فمن تلك الآثار ناووس القديسة هيلانة الذي يُرى اليوم في متحف الفاتيكان وعلى جوانبهِ احداث كتابيّة مستعارة من الانجيل المقدّس. ومنها ناووس بنقوش محفورة وجد في حارة بساماتيا في اسطنبول وهو اليوم في متحف برلين يمثل السيّد المسيح في وسط اثنين من رسلهِ وهو من ابدع الآثار النصرانيّة المكتشفة حتّى الآن — ومنها في المتحف الالماني

١) راجع كتاب بندوري (Banduri : *Imperium Orientale*, I. 14)

٢) اطلب وصف الآثار الرومانية للاب غريزار اليسوعي (Grisar: *Analecta romana*, I, 627)

في رومية ناووس عليهِ صُور ناتئة ومنقوش بالالوان من القرن الرابع المسيح او الثالث و بين تصاويرهِ صورة الراعي الصالح وصور بعض المسيحيين في هيئة الصلاة. وفي المتحف ذاتهِ قطع منقوشة منقورة في الرخام مدوَّنة تمثل السيد المسيح في بعض اعمال حياتهِ كوعظهِ على الجبل وتكثيرهِ الخبزات للجموع. وهي آثار من القرن الخامس . ولو شئنا لأمكننا ان نذكر عدداً وافراً من مثل هذه النواويس النصرانيَّة وفي ما قلنا كفاية

(سادس عشر) وكما تعدَّدت النقوش البارزة والتصاوير الناتئة من آثار النصرانيَّة القديمة كذلك تجد في المتاحف عدداً جمًّا من قطع العاج والخواتم والمصاغات واثاث البيوت مما تواصل عهدهُ منذ القرن الثاني الى القرن العاشر . فمن ذلك منبر كنيسة سالونيك الذي سلمت منهُ قطع صالحة وهو من الخشب المنقوش البارز تاريخهُ القرن الخامس للميلاد عليهِ صورة سجود المجوس للمسيح والربُّ بين ذراعي امهِ مريم. ومنها لوح في متحف چينبلي كشك في الاستانة يمثل شلو القديس مرقس بارزاً . وهناك صورة اخرى من الرخام نُقر فيها عماد السيد المسيح وعلى كثير من الحجارة الكريمة قد حُفرت تصاوير نصرانيَّة غاية في الدقَّة بعضها يمثل اسرار حياة المسيح كصلبهِ وموتهِ وقيامتهِ الى غير ذلك. اما صَنَعة هذه الحجارة فمنهم يونان ومنهم سوريون ومنهم ايطاليُّون — ومثل هذه الآثار خزفيَّات ومصابيح وصحائف بيتيَّة منها ما نُقرت بالحفر ومنها ما هو ناتئ النقش وكلها تحتوي صوراً ورموزاً ومشاهد مختلفة استعارها المصوِّرون من اخبار العهدين القديم والحديث (اطلب الاعداد ٢و٣و٤ من الشكل ٢)

وزد على ذلك تقرداً ومسكوكات نصرانيَّة قديمة. ضُربت في كل الممالك الشرقيَّة والغربيَّة وفيها تصاوير دينيَّة شتَّى يطول ايضاحها وتشهد بان القدماء لم يفرقوا بين الصور الملساء والصور البارزة الشكل

(سابع عشر) ولنا شاهد آخر على اتخاذ قدماء النصارى للتماثيل واكرامها في كنائسهم وذلك في الشعر العربي الجاهلي حيث ورد ذكر التماثيل والدُّمى يريدون بها غالباً الصُّور المنحوتة في كنائس النصارى كما ترى. قال الحارث بن خالد المخزومي (كتاب الاغاني ١٥ : ١٣٣)

وبشرة تَخْدِ مثل تمثال بيعةٍ تظلُّ النصارى حولهُ يوم عيدها

قال في التاج (٨ : ١١١) التمثال الشيء المصنوع مشبَّهاً بخلق من خلق الله عزَّ

وجلّ . وقال : التماثيل هي صور الانبياء. وكان التمثيل مباحاً في ذلك الوقت. وقال عبدالله بن العجلان (اغاني ١٩ : ١٠٢)

غرّاء مثل الهلال صورتها ومثل تمثال صورة الذهب

وأبينُ من ذلك قول عدي بن زيد وقد جعل الدُمية من عاج ووصفها بكونها في المحراب :

كدُمي العاج في المحاريب او كالبيض في الروض زهرهُ مستبرُ

ومثله في الوضوح قول النابغة :

او دمية من مَرمر مرفوعة بُنيت بآجرّ تُشادُ وقرمدِ

ومثلهُ لامرئ القيس يذكر تماثيل في موضع لبني طيّ يُدعى سُحَق في وادي الساجوم(١

كأنّ دُمى سُحَق على ظهر مرمر كما تُزبد الساجوم وشياً مصوّرا

وقد صرّح الاحوص بأنّ الدُمى كانت تجعل في الكنائس (الاغاني ٤ : ٤٩)

كأنّ لُبنى صبيرُ غابةٍ او دُميةٌ زُيّنت بالبيع

فهذه بعض شواهد اقتبسناها كلّها من القرون العشرة الاولى للنصرانيّة فعسى نسيم افندي خلاط يقنع بها ويتحقّق انّ الكنيسة الكاثوليكية باكرامها التماثيل والصور البارزة لم تحدث بدعةً وانّما تعقّبت آثار كل القرون السابقة مباشرة من عهد الرُسل الى ايامنا (٢ . وقد رأينا والحمد لله انّ اهل عصرنا من غير الكاثوليك انقسموا شرقاً وغرباً يرون اليوم رأينا ويتّخذون الدُمى والتماثيل التقويّة في معابدهم او مقاماتهم الدينيّة وهيهات ان يكرموها اكرام الوثنيين لاصنامهم وهم اذكى عقلاً وارفع تمدّناً من أن يشربوا العبادة الصحيحة بأرجاس الشرك وفظائع الوثنيّة ومثال ذلك ما رأيناه مراراً في معابد البروتستانت في انكلترّة الذين نصبوا التماثيل واكرموها كما يليق باشخاص القديسين والاولياء . ففي كنيسة القديس بولس وهي امّ الكنائس البروتستانيّة في لندن قد نُصب منذ عشرين سنة تمثال البتول على المذبح الاوسط ومن عن يمينه تمثالا الرسولين بطرس وبولس . وكأنّ جناب نسيم افندي خلاط لم يدخل

١) اطلب شهادة الازرقي في تمثال المسيح والعذراء في الكعبة في الجاهلية (مجاني الادب ٣ : ٢١٧)

٢) وهنا يجدر بنا ان نذكر انّ عدة كنائس قديمة في الغرب لاسيّما في فرنسة تكرّم تماثيل للعذراء مريم منذ اجيال عديدة وهم يغبرونهم كلها الى الشرق ويزعمون انّها نُقلت الى بلادهم في القرون الوسطى

تلك الكنيسة ورمى الكلام على عواهنه اذ قال (ص ٥٨) انَّ كنيسة مار بولس في لندن «خلوة من تماثيل القديسين» وكان الأجدر به ان يلوم الانكليز في تحويلهم كنيسة وستمنستر الى متحف اذ زيَّنوها بتماثيل رجالهم الكبار فخلطوا التصاوير الدينيَّة بصور المشاهير من الأمة

وممَّا تقرُّ له انظارنا في بيروت مشاهدتنا لمقبرة الروم الارثدكس في مار متري حيث ترى اكثر المدافن مزدانة بتماثيل من الرخام غاية في الحسن بينها صور القديسين والملائكة والعذراء مريم ومن هذه التماثيل التقويَّة ما نُصب حتى في بيروت الخاصة كتمثال القديس نيقولا الذي يُرى في بيت قريب من الناصرة وكذلك رأينا صورًا وصلبانًا ناتئة في بعض اديرة وكنائس الملكيين من كاثوليك وارثدكس ولم يعدُّوا ذلك بدعةً

فيحقُّ اذن لكل الطوائف النصرانيَّة أن تفتخر بالتمثال الجديد الذي رُفع فوق لبنان كنار على علم يُستضاء بها او كحربة الصاعقة تردُّ عن اهله البلايا والاضرار بشفاعة البتول الطاهرة التي أُعطي لها مجد لبنان . وفي الختام يسرُّنا ان نشير هنا الى ما نظمهُ حضرة المنشور برجس شلحت في الفنون الجميلة والكنيسة وخصوصاً الى ما كتبهُ في فن النقاشة (المشرق ١٠ : ٩٨٤) حيث بيَّن ما لهذه الصناعة من الوقع في القلوب وكيف قدَّستها الكنيسة للرب باتخاذ التماثيل التقويَّة لتصرف قلوب اولادها الى الكنيسة العلويَّة ومصافّ القديسين في السماء فقال عن المعبد وزينته بالتماثيل فاجاد:

ان لم تَنُم فيهِ التماثيلُ يُرَى ... كالأرض إن حرَّمها اللهُ الورى
او كالسماء بَرَحَتْها الشُهُبُ ... او كأس راحٍ لم يَزُرْها المنسَبُ
او سلك نجمٍ لم يُحلَّ بالدُرَرْ ... او مُزْنَةٍ ضَنَّتْ علينا بالمطرْ
اجل اذا القصرُ خلا من دُمْيَةٍ ... تخالهُ جوًّا خلا من ديمةِ
او بقعةٌ قد ذبلتْ ازهارها ... وخسرت اثمارَها اشجارُها
والمرءُ لا يبشهُ على التُقى ... سوى شبيهِ لزنبقِ التقا
وحدهِ التمثالَ بالأبصارِ ... يُذكرهُ فضائل الابرارِ
يحثو امام دمية القديس ... مقدِّماً لربِّهِ القدوس
ملتمساً منهُ غياثًا ومدَدْ ... مستشفعاً الى المولى الصَّمَدْ
لكنَّنا لا نعبدُ التمثالا ... كما هذى جهَّالنا مقالا
بل نتمثَّل بها اصحابا ... مبجِّلين كلُّنا ارباجا